الكنيسة الشرقية الاورثذكسية

نظر الاب فرنسيس تورنيزن اليسوعي

قد توجّهت انظار كتبة الغرب الى درس الشرق وكلّ ما يتوط به من تاريخ وآثار وآداب ودين فلا يمرّ علينا يوم واحد دون ان نطّلع على مطبوعات جديدة تميط القناع عن بعض مجهولات الشرق. وممّا تنبّأناه آخرًا بقلّ الفرح كتاب وضعهُ احد نزلاء كليتنا في العام المتصرّم وهو أسرة انكليزيّة عريقة في الشرف الدكتور ادريان فرتسكيو — كان قصد بلاد الشام ليبحث عملهُ فتمّ اليوم نشرهُ طبعًا. وهو بالانكليزيّة وعنوانهُ « الكنيسة الشرقية الاورثذكسيّة » ولما كان هذا التأليف ذا شأن عظيم لمعرفة احوال الكنائس الشرقيّة في بلادنا اردنا ان نشع قليلًا في وصفهِ تمرينًا بحاسنهِ

١ مصنف الكتاب واسانيده

ليس مصنّف هذا الكتاب ممّن يبتدرون الكتابة قبل التروّي والتنقيب الطويل ومعلوم انّ الكلام في الكنيسة اجمالًا يقتضي معارف دينيّة واسعة كاللاهوت النظري والادبي واخصّ التقانوني ودرس اعمال الآباء ومجامع. امّا الكلام في الكنيسة الشرقيّة خصوصًا فانهُ يستدعي ما خلا ذلك درس التاريخ الكنسي ونظم كنائس الشرق وطقوسها ومختلف احوالها في داخليها وخارجيها. وقد ادرك ذلك كلهُ مؤلف هذا الكتاب فانهُ تخرّج في كل العلوم الدينيّة في كليّة انسبروك من اعمال النساطرة على اساتذتها البارعين من الرهبانيّة اليسوعية فنال رتبة اللقان في الفنون المذكورة ثمّ تفرّغ للبحث عن امور الشرق الدينية حتى تقنها ولنا شاهد على همتهِ واتساع معارفهِ في هذا الصدد في المقدّمة التي صدّر بها كتابهُ حيث سرد اسماء المصنّفات العديدة التي راجعها لتأليف هذا السفر الجديد مشيرًا الى كلّ كتاب انتقدَ على مزاياه الخاصة امّا استحسانًا لها وامّا قبحًا لشوائبها. وقد ساعدهُ على مراجعة كتب عديدة معرفتهُ التامّة لعظم لغات اوربا فتقرّبت اليهِ بذلك مؤلفات بلاد شتى لمكنهُ اقتباس فوائدها ولاسيما الجلات الشرقية

* وهذا عنوانهُ في الانكليزية THE ORTHODOX EASTERN CHURCH by Adrian Fortescue, Ph. D., D. D. with illustrations by the Author, *London. Catholic Truth Society*, 1907, XXVII-451.

التي اختصت بآثار الشرق واحوال الشرقيين . ولم يكتفِ بتدوين بدول تلك التآليف بل تراهُ في ذيل كلّ صفحة من كتابهِ يشير الى الاسانيد التي يدعم اليها اقوالهُ وان اقتضى الامر ذلك فند آراء من سبقهُ بحجج راهنة وادلّة بيّنة . وليست اسانيدهُ كاثوليكية فقط بل ربَّما روى عن كتبة الروم الاورثدكس والبلغار والبروتستانت فلا يدع شيئاً مما يؤدي بهِ الى معرفة ما قصد بيانهُ . هذا فضلاً عن درسهِ تكتب الرتب الطقسيَّة اليونانيَّة على مدار السنة الليتورجية . فناهيك بذلك برهاناً على حسن استعداد المؤلف للكتابة في ما تحرَّى تسطيرهُ

على انَّ الكاتب الفاضل لم يترك كل هذه المصادر السابق ذكرها اعتباراً واحداً بل يزنها على حسب فضل كتبتها وعلمهم وصدق رواياتهم وممَّا صرَّح بثقتهِ فيهِ كتاب العلَّامة هرغنروتر (Hergenroether : *Photius*) في ترجمة البطريرك فوطيوس وهو حقيقةً كتاب جليل لم يدَّخر فيهِ صاحبهُ جهداً في ضبط وتدقيق معلوماتهِ . وكذلك يطرئ كتاب الاستاذ كاتنبوش في تعريف المعتقدات الكنسيَّة (Kattenbusch : *Lehrbuch d. vergleich. Konfessionskunde*) وعلى خلاف ذلك فانهُ يحطُّ من قدر كتاب الاستاذ نيل في تاريخ الكنيسة الشرقية (G. M. Neale : *History of the Holy eastern Church*) فلا يرى تحته كبير امر

ولا نظن مع هذا انَّ المؤلف استوفى في جدولهِ السابق كلّ الكتب التي امكنهُ مراجعتها والتي كان يستطيع ان يستفيد من بعض تآليف الاب بيرلنغ (Pierling) والاب غاغارين (Gagarin) اليسوعيَّين وتآليف الخوري مكسيليان ابن امير الكس في الليتورجيَّات الشرقية . وردّ الاب براندي على البطريرك اثيوس السابع وبعض تآليف الاب تديني البرنبي . وتآليف بيتزيبيوس (Pitzipios) في الكنيسة الشرقيَّة وكتب اخرى مفيدة

وما يجدر بنا ان نزيدهُ هنا في ذكر صاحب الكتاب انَّهُ يُشعر في كل صفحة من صفحات كتابهِ بما يتضمَّنهُ قلبهُ من الحب الصادق للكنيسة الشرقية فيعظِّم اعمالها ويجلّ قديسيها ويطنب في محامد كتبتها ويسترسل في اوصاف طقوسها وليتورجياتها ويرثي لاوجاعها وبلاياها وغاية ما يتمنَّى ان يُعيد لها بهاءها القديم ورونقها السابق ويتحاشى كل ما من شانهِ ان يسيء احساسات اهلها . ولذلك لم يشأ ان يدعوها باسم الكنيسة المنقطعة

بل عنون كتابهُ باسم رضيَتْ هي به وهو اسم الكنيسة الشرقية الاورثذكسية قاطعاً النظر عن مطابقتهِ للسنّي وكلّ الكنائس كما لا يخفى تتمتُّ قسمها بالاورثذكسية اي المستقيمة الرأي . وهو يفهم به هنا كلّ الكنائس التي كانت سابقاً تحت حكم الكنيسة البرزنطية او تنتمي اليها في عهدنا وانْ كانت مستقلة عنها

٢ مواد الكتاب وابحاثهُ

هلمَّ بنا بعد تعريفنا لصاحب هذا التأليف وللمصادر التي اخذ عنها نستقري فصول الكتاب ونتتبع ما اودعهُ فيها من الابحاث .

قد قسم المؤلف كتابهُ الى اربعة اقسام تشمل مجموع المطالب التي تختص بالكنيسة الشرقية الاورثذكسية . ففي القسم الاوّل يبحث عن تاريخها قبل انفصالها عن الكنيسة الرومانية . وفي الثاني يلخص خبر ذلك الانفصال ويروي اسبابهُ الصحيحة . ثمَّ في القسم الثالث يبيّن ما تثبّتت فيه الكنيسة الاورثذكسية من الاطوار بعد الانفصال . ويختم كتابهُ بقسم رابع خصَّهُ بتعريف احوال الكنيسة الشرقية في أيامنا

﴿ القسم الاوّل ﴾ مدارهُ على البطريركيات الشرقية واصولها وعددها وترتيبها وامتيازاتها وهو بحث جليل سبق اليهِ الشرق في مستهل الخامسة . فذكر حضرة المؤلف علاقة اكرسيين الانطاكي والاسكندري بانكرسي الاوّل اي الروماني ثمَّ تخلّى الى ذكر انكرسي الاورشليمي الذي نال في القرن الرابع امتيازات خاصة لما جرى في القدس الشريف من الاسرار العظيمة واعقب ذلك بتاريخ انكرسي القسطنطيني الذي لم ينل امتيازات البطركيات الّا بطريقة غير قانونية لما بوح اصحابهُ يطمعون في التقدّم ويسعون طاقة جهدهم في عنفوان الرئاسة زعماً منهم بان القسطنطينية اضحت رومية الجديدة بعد ان جعل فيها القيصر مركز اعمالهم فتحقّ لها السيطرة على الكنائس الشرقية لهذا السبب . لكنَّ الاحبار الرومانيين لم يزالوا يدافعون عن حقوق الكرسيين الانطاكي والاسكندري ويحتجّون على تطاول الكرسي البرزنطي كما فعل خصوصاً القديسان لاون الكبير وغريغوريوس الكبير حتى اوجبتهِ الظروف بالصفح عن تلك المطامع . وكان مع ذلك كرسي القسطنطينية مقرّاً لرئاسة الحبر الروماني على الكنيسة جمعاء الى عهد فوطيوس كما تشهد عليهِ البينات الثابتة والشواهد التاريخية المتواصلة ولاسيما اقوال آباء المجامع المسكونية السبعة الاولى . وقد خصَّ حضرة الدكتور فصلاً كاملاً في بيان

ذلك استنادًا على شهادات الكتبة الاقدمين والمؤرخين المحققين. وقد انهى هذا القسم بفصل افرده لايضاح معتقدات الكنيسة الشرقية في القرون التسعة الاولى وفي آدابها وليتورجياتها وفنونها الصناعية لاسيما التصوير والنقش... فهذا القسم كما ترى شامل لاحوال بوزنطية الدينية احسن تكاتب في بيانه ملخصًا مضامينه عن اوثق الكتبة الشرقيين والغربيين

القسم الثاني يحتوي تاريخ الانفصال بين كنيسة رومية والكرسي البوزنطي وبيان ذلك يقتضي شروحًا وتفاصيل متعددة يصعب ايضاحها بكلام وجيز وقد عرف الدكتور فورتسكيو كيف يوردها بحيث يكون القارئ على بصيرة من الاسباب التي أدّت الى ذلك الانشقاق المشؤوم. وقد بيّن ما تفرّد به فوطيوس من المزايا والصفات وخصوصًا ذكاءه وسعة معارفه التي ابقى منها آثارًا جمة الّا انهُ شوّه تلك النجاية الطبية بحبّ مفرط للرئاسة وذلك ما كان السبب الاعظم للشرور التي حلّت بالكنيسة البوزنطية فتصدى القديس اغناطيوس البطريرك الشرعي ولم يزل يضطهده حتى اثرهُ مرغومًا عن كرسيه سنة ٨٥٧ فحدا الامر بالقديس نيقولا الكبير بابا رومية بحزم فوطيوس فلم يجد هذا ليدافع عن قضيته وسيةً الّا بنسبة الخرعلة للكنيسة الرومانية بقولها بانبثاق روح القدس من الاب والابن معًا

على انّ ذلك الانفصال الذي سبّبهُ فوطيوس لم يكن نهائيًا وقد بيّن مصنف هذا الكتاب بعدّة شواهد انّ اخلاف فوطيوس عادوا الى الوحدة مع الكرسي الرسولي والخضوع لاوامر الاحبار الاعظمين حتى قام ميشائل كرولاريوس الذي فصم نهائيًا عروة الوحدة. نعم انّ الدكتور فورتسكيو ينسب لبعض الغربيين هفوات ارتكبوها عجّلت وقوع ذلك الانفصال الّا انّ البطريرك كرولاريوس اتى بأعمال لا يمكن تركيبها على الاطلاق فانهُ ازال اسماء الاحبار الرومانيين من الديبطخا المقدسة وأقفل كنائس اللاتين في جهات بطريركيته وبغى في سوء تصرفه الى حدّ اوجب النياصرة بنيسه كما تقوّلوا على فوطيوس على انّ وحدة الكنيسة منذ ذلك اليوم أصيبت بضربة لازبة

القسم الثالث يتضمن اخبار الكنيسة الشرقية الارثوذكسية بعد انفصالها في القرن الحادي عشر عن مركز الوحدة. فيفصل ما سعى به كبار الاحبار لرتق الفتق وردّ الابنة الشاردة الى أمّها. وذلك في المجامع المقدسة التي عقدت في مدينة فلورنسا ثمّ في

مدينة ليون ثمّ في فرنسة وكان ازوه في كل هذه المجامع يتصدون الانضمام الى امّ الكنائس ويسعون فيه بعض السعي ثمّ لا يلبثون ان يعودوا الى إبائهم وتنورهم حتى قُطع امل الانضمام في سنة ١٤٥٣ بذهاب الكنيسة الاورثدكسيّة من النوائب والرزايا. على انّ الكنيسة الرومانيّة لم تهمل كرسيّ القديس غريغوريوس اللاهوتي والقديس يوحنا ذهب كما تشهد عليه الرسالات اللاتينية التي لا تزال في الشرق تمهّد الطرق للاتحاد الدينيّ وإبطال اسباب النفور

ومن فصول هذا القسم المفيدة تاريخ المدارس والدروس في البطريركية القسطنطينية وتفصيل مساعي البروتستانت في اجتذاب اصحاب الكرسي البوزنطي الى آرائهم خصوصاً في القرن السابع عشر على عهد كيرلس لوكاريس. ولولا همّة المرسلين الكاثوليك لغلبت تلك الآراء على كنائس الشرق

﴿ القسم الرابع ﴾ هذا القسم يصف احوال الكنيسة الشرقية الاورثدكسية في عهدنا فيعدّد في فصل اوّل بطريركيتها وكراسيها المستقلّة التي انفصلت بالتدبير والنظام عن الكرسيّ القسطنطيني كتبرص ثمّ روسيا (سنة ١٥٨٩) ثمّ الكرج ثمّ كاوقش للجبر وكراراغورا للجبل الاسود (١٧٦٥) ثمّ كرسي طور سينا الذي عُرف استقلاله رسميًّا سنة ١٧٨٢. ثمّ كنائس الجبل (١٨٦٠). ثمّ كرسي هرمنشتاد للفلاخ والرومان (١٨٦٤). ثمّ كرسي البلغار (١٨٧٠). ثمّ كرسي كرارنوفتس لبلاد برکوفين في النمسا (١٨٧٣) ثمّ كنيسة سربيا (١٨٧٩) ثمّ كرسي الهرسك والبشناق (١٨٨٠) ثمّ اخيرًا كنيسة رومانيا (١٨٨٥)

ويلي الفصل السابق عدّة ابواب اوّلها باب في نظام الكنائس الشرقية الاورثدكسية وخدمة دينها من رأسها البطريرك ومطارنتها واساقفتها وكهنتها ورعاياها الى شمامستها وطلبتها. وفي الباب التالي تعريف بإيمان تلك الكنائس وما يفصلها وينذر الكنيسة الرومانية كرئاسة الحبر الاعظم وقضية الانبثاق والاستحالة الجوهرية والمطهر والحبل بريم العذراء بدون الخطيئة الاصلية. ويبدي الكاتب رأيه في كل ذلك ولا يرى من المستحيل تذليل تلك العقبات

والباب الثالث يحيط علمًا بالتقويم بعادات الروم وكلندارهم واعيادهم ورتبهم

وكبهم الطقسية الى ما هناك من الاقادات من الفنون الصناعية الدينية كبناء الكنائس والتصاوير والموسيقى والآنية القدسية الخ

وقد ختم الكتاب مجاهرًا بأمله في عود تلك الوحدة التي هي زينة الكنيسة وموضوع دعاء السيد المسيح الذي طلب من ابيه ان تكون الحظيرة واحدة والراعي واحدًا

هذا نظر عمومي عن ذلك السفر الجليل الذي احيينا وصفهُ لقرائنا . وغاية ما نرغب ان يُنقل هذا الكتاب الى لغتنا العربية لتقرب فوائدهُ من اهل هذه البلاد ويسعوا جهدهم في تعجيل تلك الوحدة المرغوبة التي يشتاق اليها كل المسيحيين

وكنا نودّ بان نلحق الاسطر السابقة ببعض ملحوظات في هذا الكتاب ونحن نعلم انَّ مؤلفهُ يتأبى بالشكر ويستفيد منها لطبعة ثانية . لكنَّ ملحوظاتنا هذه في امور عرضيَّة لا تمسّ جوهر الكتاب ولا يسعنا هنا ايرادها لضيق المكان . وانَّا نكتفي بان نُعلم حضرتهُ عن مجمع الاورشليمي المنعقد في توفين انهُ عُقد سنة ٥٠٥ او ٥٠٦ وليس كما كان يزعم الاقدمون سنة ٥٩١ وقد ثبت الآن بأن انقسام الارمن عن الكنيسة على عهد فرمي الثاني تمَّ سنة ٥٥٤ . والامر قد تبيَّن بنشر كتاب قديم موسوم بكتاب الرسائل الذي طُبع في تفليس سنة ١٩٠١ . وباختام نتمنَّى لهذا الكتاب رواجًا وانتشارًا جازى الله مصنفهُ كلَّ خير

مطبوعات شرقية جديدة

Abbé Curtet: La Terre Sainte autrefois par aujourd'hui. *Nouv. édit.*. 1905, Belley, Chadnc. 172 pp.. gr. 8° — Suppléments 1907-1908, 32 pp.

الاراضي المقدسة وتعريف قديمها من حديثها

قد زار صاحب هذا الكتاب غير مرَّة بلاد فلسطين فاذهلتهُ امورها وعادات اهاليها فأدرك بالعناية ما بينها وبين روايات الكتب المقدَّسة من التشابه ثمَّ وجد في رحلاته كثيرين من الزوَّار ملحوظات كملحوظاته الخاصَّة فجمعها واضافها الى ما عاينهُ بنفسه